

علم التأويل: من أنطولوجيا الوجود إلى استراتيجيات الفهم

Hermeneutics: From the Ontology of Being to Strategies of Understanding

علي ملاحي

هدى مزغيش

جامعة الجزائر 2

جامعة الجزائر 2،

mellahi.elhikma@gmail.comhouda.mezghiche@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2026/08/25 تاريخ القبول: 2026/09/14 تاريخ النشر: 2026/10/01

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى سبر أغوار "علم التأويل" أو "الهرمنيوطيقا" بوصفه واحدا من أهم الحقول المعرفية المعاصرة التي أعادت صياغة علاقة الإنسان بالنص وبالعالم، تنطلق الدراسة من فرضية مفادها أن التأويل ليس مجرد مهارة تقنية لاستخراج المعاني المخبأة، بل هو "قدر" الوجود الإنساني بأسره، يتتبع البحث رحلة هذا العلم من أصوله اليونانية واللاهوتية، وصولا إلى قمة نضجه مع الفلسفة الظاهراتية، كما يحلل البحث الأدوات الإجرائية التي يستخدمها المؤول لإحداث "انصهار آفاق" بين الماضي والحاضر، مع استعراض أهم أعلامه الذين نقلوا علم التأويل من تفسير "النصوص" إلى تفسير "الحياة".

كلمات مفتاحية: علم التأويل، التأويل، الفهم، إنتاج المعنى، جماليات التلقي، النشاط التأويلي

Abstract:

This research aims to explore the depths of "Hermeneutics" as one of the most significant contemporary philosophical fields that redefined the human relationship with texts and the world. The study proceeds from the hypothesis that interpretation is not merely a technical skill for extracting hidden meanings, but rather the "destiny" of human existence. The research traces the journey of this field from its Greek and theological origins to its peak with phenomenological philosophy. It also analyzes the procedural tools used by the interpreter to create a "fusion of horizons" between the past and present, highlighting key figures who shifted hermeneutics from interpreting "texts" to interpreting "life."

Keywords: Interpretation, understanding, meaning production, aesthetics of reception, interpretive activity

*المؤلف المرسل: هدى مزغيش

1. مقدمة

لطالما كان الإنسان كائنا "مؤولا" بطبعه؛ فنحن لا نرى العالم ككتل صماء، بل كمعان تستدعي القراءة، إن علم التأويل (الهرمنيوطيقا) (Hermeneutics) هو تلك المغامرة الفكرية التي تحاول الإجابة عن سؤال يبدو بسيطا، ولكنه يختصر تعقيد الكينونة، وهذا السؤال هو: "كيف نفهم؟".

لقد انتقل علم التأويل (الهرمنيوطيقا) عبر تاريخه الطويل من ضيق "القواعد الإرشادية" لفك شفرات وعلامات النصوص المقدسة والقانونية، إلى سعة "الفلسفة الشاملة" التي ترى في الفهم عملية وجودية مستمرة، إننا اليوم في أمس الحاجة إلى هذا العلم؛ لقراءة التراث وفهم التعددية الثقافية، وتفكيك الخطابات القديمة والمعاصرة، وإعادة بناء الجسور بين الذات والآخر.

سنتناول في هذا البحث هذه الصيرورة عبر أربعة محاور: نبدأ بالمرجعيات والجذور، ثم ننتقل إلى الرواد الذين نحتوا ملامح هذا العلم، ثم نغوص في المنظومة الإجرائية والأهداف، لنصل في الختام إلى أمثلة تطبيقية تبرهن على حيوية هذا العلم.

أولا - المرجعيات الفكرية والجذور التاريخية للتأويل :

لا يمكننا فهم علم التأويل (الهرمنيوطيقا المعاصرة) دون العودة إلى "عرشته الأولى" في الوجدان الإنساني، إن لفظة "هرمنيوطيقا" ليست كلمة محايدة، بل هي مثقلة بظلال الأسطورة والتاريخ.

- المرجعية الأسطورية واللغوية:

يعود أصل الكلمة إلى الإله اليوناني "هيرميس (Hermes)"، وهو رسول الآلهة الذي أوكلت إليه مهمة نقل الرسائل من جبل الأوليمب إلى البشر الفانين، ولم تكن مهمته مجرد "نقل" حرفي، بل كانت "ترجمة" وتفسيرا؛ لأن لغة الآلهة الغامضة لا يمكن أن يستوعبها البشر إلا إذا لُفَّت برداء اللغة الإنسانية ومجازاتها، من هنا ارتبط التأويل منذ بدايته بفكرة "الوساطة" بين عالمين.

- المرجعية اللاهوتية (التأويل الديني):

في العصور الوسطى، كانت الهرمنيوطيقا تُعنى بوضع ضوابط لتفسير الكتب المقدسة، ومع بروز حركة الإصلاح البروتستانتي بقيادة مارتن لوتر، حدث تحول جذري؛ إذ رُفِع شعار "الكتاب وحده"، مما استدعى وضع قواعد تأويلية تسمح للفرد بفهم النص المقدس دون وساطة الكنيسة، وهو ما مهد الطريق لظهور "الهرمنيوطيقا العامة".

- المرجعية الفيلولوجية والقانونية:

تطور علم التأويل أيضا في أحضان فقه اللغة (الفيلولوجيا)، حيث كان العلماء يسعون لترميم النصوص الكلاسيكية القديمة وفهم سياقاتها التاريخية، وكذلك في مجال القانون، حيث يبرز التحدي الدائم في كيفية تطبيق نص قانوني "ثابت" على واقع إنساني "متغير".

- منطق الفهم - من المعيار إلى الوجود :

إن انتقال علم التأويل من "المرجعية المعيارية" (أي القواعد التي تقول لنا ما يجب فعله) إلى "المرجعية الفلسفية" هو ما صنع عظمتها، يقول الفيلسوف الفرنسي بول ريكور في كتابه "صراع التأويلات": "إن التأويل هو العمل الفكري الذي يتمثل في فك المعنى المزدوج، وفي كشف مستويات المعنى المتضمنة في المعنى الرمزي" (بول ،

2004، صفحة 21)

مثال توضيحي: لتأمل عبارة شعرية أو نصا لاهوتيا قديما؛ المرجعية القديمة كانت تبحث عن "مراد القائل" بصرامة تاريخية، أما علم التأويل الحديث فيبحث عما "يقوله النص لنا اليوم"، إنه لا ينظر إلى النص كجثة هامدة في المشرحة، بل ككائن حي يتحاور معنا.

لقد تضافرت هذه المرجعيات (الأسطورة، الدين، القانون، اللغة) لتشكّل أرضية خصبة انطلق منها الرواد الأوائل، حيث سيبدأ علم التأويل في خلع ثوبه التقليدي ليرتدي رداء الفلسفة النقدية، هذا الإبحار المعرفي يجعلنا ننتقل من الجذور التاريخية إلى عصر "العمالة"، أولئك الرواد الذين نحتوا لعلم التأويل كيانه المستقل، وحولوه من مجرد "أداة" إلى "منهج" ثم إلى "أفق للوجود".

ثانيا -- رواد علم التأويل والتحويلات الكبرى (عصر التأسيس الفلسفي):

بعد أن كان علم التأويل مشتهة بين اللاهوت والقانون، جاء القرن التاسع عشر وما تلاه ليعيد صهر هذا الشتات في بوصلة فلسفية واحدة، وانتقل التأويل من محاولة "فهم المؤلف" إلى "فهم الحياة" ذاتها.

- فريدريك شليرماخر (1768-1834) عبقرية الفهم التقني:

يُلقب شليرماخر بـ "أبي علم التأويل الحديث"؛ لأنه أول من نادى بضرورة وجود "علم تأويل عام" لا تختص بنوع واحد من النصوص، وبالنسبة له التأويل هو "فن" يهدف إلى تجنب سوء الفهم.

يرى شليرماخر أن الفهم يتم عبر مسارين متكاملين:

-التأويل اللغوي: دراسة القواعد النحوية واللغوية التي يتشارك فيها المؤلف مع عصره.

-التأويل النفسي (التقني): وهو الجانب المبدع، حيث يحاول المؤول إعادة بناء العمل الذهني للمؤلف،

لدرجة أن المؤول قد يفهم النص "أفضل مما فهمه المؤلف نفسه"، لأنه يرى العمل ككل متكامل بينما كان المؤلف غارقاً في لحظة الإنتاج.

"إن هدف علم التأويل (الهرمنيوطيقا) هو إعادة بناء العملية الذهنية التي مربها المؤلف عند إنتاج نص ما.

(فريدريك ، 2012 ، صفحة 88)".

- فيلهلم ديلتاي (1833 - 1911) علم التأويل (الهرمنيوطيقا) كمنهج لعلوم الروح:

مع ديلتاي، انتقل علم التأويل (الهرمنيوطيقا) من دائرة "النصوص الأدبية" إلى دائرة "التاريخ"، كان ديلتاي

يسعى لتأسيس استقلال "علوم الروح" -أي العلوم الإنسانية- عن "علوم الطبيعة"، كان يرى أن الطبيعة "نفسها"

عبر قوانين السببية، أما الإنسان وحياته وتاريخه فنحن "نفهمهم"، والتأويل عند ديلتاي هو قراءة "تجربة الحياة"

التي تجسدت في أشكال موضوعية (كتب، فنون، مؤسسات).

يقول ديلتاي في عبارته الشهيرة: "نحن نوضح الطبيعة، لكننا نفهم حياة النفس (بالمر ، 2005 ، صفحة

152).

مثال توضيحي: عندما ندرس سقوط إمبراطورية ما، فنحن لا نكتفي برصد الأرقام والتواريخ (تفسير)، بل

نحاول "تقمص" الحالة الوجدانية والاجتماعية التي أدت لذلك (فهم تأويلي).

تُعد ترجمة أعمال الفيلسوف الألماني فيلهلم ديلتاي (Wilhelm Dilthey) إلى العربية خطوة أساسية في إثراء المكتبة الفلسفية العربية، خاصة في مجالات "علم التأويل" "الهيرمينوطيقا" وفلسفة الحياة، ومن أبرز كتبه المترجمة إلى العربية، كتاب "نشأة الهيرمينوطيقا"؛ يُعتبر هذا الكتاب من أهم النصوص التي أرست علم التأويل الحديث.

المترجم: د. سعيد توفيق، دار النشر: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر. سنة النشر: 2006 (وصدرت له طبعات أخرى عن دور مختلفة مثل دار التنوير)، ويتضمن هذا الكتاب: دراسة تاريخية وفلسفية لتطور فن الفهم والتأويل، بالإضافة إلى كتاب "بناء العالم التاريخي في علوم الروح" وهو العمدة في مشروع ديلتاي لتأسيس "نقد للعقل التاريخي"، المترجم: د. هند عبد الغفار، دار النشر: المركز القومي للترجمة، بلد النشر: القاهرة، مصر، سنة النشر: 2015، ويركز الكتاب على كيفية فهم المعنى داخل السياقات التاريخية والاجتماعية.

بالإضافة إلى كتاب: "مقدمة لعلوم الروح" محاولة ديلتاي الكبرى لتمييز العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية من حيث المنهج والموضوع، المترجم: د. نبيل فولي، دار النشر: المركز القومي للترجمة، بلد النشر: القاهرة، مصر، سنة النشر: 2013، لقد صاغ ديلتاي في هذا الكتاب مفهوم "الارتباط البنيوي" للحياة النفسية، ومن ضمن كتبه كتاب: "فلسفة الحياة" (مختارات ومقالات)

غالباً ما تأتي هذه النصوص ضمن مجموعات مختارة تشرح رؤيته حول "تجربة الحياة" (ديلتاي ، 2006).

1- سعيد توفيق (ضمن دراساته عن ديلتاي)، دار النشر: دار التنوير للطباعة والنشر / المجلس الأعلى للثقافة، بلد النشر: بيروت/ القاهرة، سنة النشر: تفاوتت بين 2003 و 2010.

يرتكز المنهج الفلسفي لـ فيلهلم ديلتاي على محاولة رئيسية وهي: تأسيس علوم الإنسان (علوم الروح) على أسس إبستمولوجية صلبة توازي تلك التي قامت عليها العلوم الطبيعية، ولكن بمنهج مختلف تماماً، وأهم العناصر الجوهرية التي تشكل عماد منهجه الفلسفي:

- التمييز بين "علوم الروح" و "علوم الطبيعة"

يرى ديلتاي أن المنهج المتبع في العلوم الطبيعية (الفيزياء، الكيمياء) لا يصلح لدراسة الإنسان والمجتمع. علوم الطبيعة: تقوم على "التفسير (Erklären)" ، أي البحث عن العلل والأسباب والقوانين الكلية التي تحكم الظواهر المادية.

علوم الروح (الإنسانيات): تقوم على "الفهم (Verstehen)" ، لأن موضوعها هو "الحياة البشرية" التي لا تخضع لقوانين صلبة، بل تُفهم من داخلها عبر التجربة والمعنى.

- مفهوم "الحياة" و "التجربة الحية (Erlebnis)"

يؤكد ديلتاي أن الفلسفة يجب ألا تبدأ من "العقل المجرد" (كما فعل كانت)، بل من "الحياة" كما نعيشها. التجربة الحية: هي الوحدة الأساسية في منهجه؛ فنحن لا ندرك العالم كأفكار باردة، بل من خلال مشاعرنا، إرادتنا، وتاريخنا.

الحياة عند ديلتاي ليست بيولوجية فحسب، بل هي "تدفق" من المعاني والمقاصد التي تتجلى في الفن، القانون، الدين، والأدب.

- نقد العقل التاريخي

إذا كان إيمانويل كانت قد كتب "نقد العقل الخالص"، فإن ديلتاي سعى لكتابة "نقد العقل التاريخي".

يؤمن ديلتاي بأن الإنسان كائن تاريخي بامتياز، ولا يمكن فهمه إلا من خلال تاريخه.

لا يوجد "عقل مطلق" ثابت عبر العصور، بل إن المعرفة والقيم والأنظمة تتغير بتغير السياق التاريخي، وهذا

ما يسمى بـ "التاريخانية".

- الهرمينوطيقا (علم التأويل)

بما أن "الحياة" تعبر عن نفسها من خلال آثار باقية (نصوص، فنون، مؤسسات)، فإن المنهج الذي

نستخدمه لفهم هذه الآثار هو الهرمينوطيقا.

- الدائرة الهرمينوطيقية:

يرى ديلتاي أننا نفهم "الجزء" (النص أو الحدث) من خلال "الكل" (السياق التاريخي أو حياة المؤلف)،

وبالعكس، الفهم هنا ليس مجرد عملية عقلية، بل هو "إعادة عيش" أو "تقمص" لتجربة الآخر من خلال آثاره.

منهج ديلتاي هو منهج وصفي تأويلي، يبتعد عن التجريد الرياضي ويغوص في ثنايا "الواقع التاريخي

والاجتماعي"، هو يريدنا أن نفهم الإنسان كـ "وحدة متكاملة" (عقل وإرادة وشعور) وليس كآلة أو موضوع مخبري.

لماذا يهتمنا منهج ديلتاي اليوم؟ لأنه فتح الباب أمام الفلسفة الوجودية، وعلم الاجتماع الفهمي (ماكس

فيبر)، وطور الهرمينوطيقا التي أصبحت ركيزة أساسية في النقد الأدبي والعلوم الإنسانية المعاصرة (4).

- مارتن هايدجر (1889 - 1976) التأويل كنمط وجود:

هنا نصل إلى الانقلاب الأكبر في تاريخ الهرمنيوطيقا، مع هايدجر، لم يعد التأويل "منهجاً" نطبقه على

النصوص، بل أصبح "كاشفاً" عن طبيعة وجودنا، في كتابه العمدة "الكيونة والزمان"، يرى هايدجر أن الإنسان

كائن "مؤول" بالضرورة؛ فنحن لا نوجد أولاً ثم نقرر أن نفهم، بل إن "وجودنا هو الفهم".

يسعى هايدجر في كتابه «الكيونة والزمان» إلى إحياء "سؤال الكيونة" الذي اعتبره منسياً في تاريخ

الميتافيزيقا الغربية؛ فهو لا يبحث عن "الكائنات" بل عن "معنى الكيونة" ذاتها، ولتحقيق ذلك، يتخذ من "الداواين "

— (Dasein) وهو مصطلح يشير إلى الوجود الإنساني بما هو كائن يمتلك وعياً بكيونته — مدخلا تحليلياً أساسياً.

يفكك الكتاب بنية الوجود الإنساني بوصفه "وجوداً في العالم"، متجاوزاً ثنائية الذات والموضوع التقليدية، ليخلص

إلى أن الزمان هو الأفق الضروري لفهم أي كيونة، عبر مفاهيم معقدة مثل "القلق"، "الهم"، "الوجود نحو الموت"،

و"الأصالة"، يجادل هايدجر بأن الإنسان ليس جوهرًا ثابتاً بل هو إمكانية محضة محكومة بالزمانية، مما يجعل

الكتاب محاولة جذرية لإعادة تعريف ماهية الإنسان وعلاقته بالوجود من منظور ظاهراتي (فينومينولوجي).

أدخل هايدجر مفهوم "البنية المسبقة للفهم": أي أننا لا نأتي إلى أي نص أو ظاهرة بصفحة بيضاء، بل نأتي محملين بتوقعات ومفاهيم مسبقة تشكل أفقنا، "إن الفهم ليس وظيفة معرفية من بين وظائف أخرى، بل هو المظهر الأساسي لوجود الإنسان في العالم. (مارتن ، 2012، صفحة 214)"

- هانس جورج غادامير (1900 - 2002) انصهار الآفاق:

غادامير هو التلميذ النجيب لهايدجر، وهو الذي أعطى لعلم التأويل (الهرمنيوطيقا) صورته المعاصرة الأكثر نضجا في كتابه "الحقيقة والمنهج" (1960)، رفض غادامير فكرة "الموضوعية" الباردة التي تدعي أننا نستطيع التجرد من أنفسنا لفهم الماضي.

يُعد كتاب "الحقيقة والمنهج (Wahrheit und Methode)" للفيلسوف الألماني هانز جورج غادامير العمدة في الهرمنيوطيقا (الفلسفة التأويلية) المعاصرة؛ حيث سعى فيه إلى تجاوز النظرة التقليدية للتأويل بوصفه مجرد "أداة" أو "تقنية" لفهم النصوص، ليجعله تجربة وجودية تمس كيان الإنسان وعلاقته بالعالم. أهم الأفكار الواردة في كتاب: "الحقيقة والمنهج" رد الاعتبار لـ "الأحكام المسبقة: (Prejudices)" خلافاً للتنوير الذي دعا للتخلص منها، يرى غادامير أن الأحكام المسبقة "المنتجة" هي شرط ضروري للفهم وبداية كل معرفة.

1- نقد النزعة العلمية والمنهج

ينطلق غادامير من نقد الهيمنة الفكرية للمناهج التجريبية التي تدعي "الموضوعية المطلقة". ويرى أن الحقيقة لا تنحصر فقط فيما يمكن إثباته عبر المنهج العلمي الصارم، بل هناك "حقائق" خارج نطاق المختبر، نجدها في الفن، والتاريخ، واللغة. الكتاب هو محاولة لاستعادة مشروعية الفهم الإنساني الذي يتجاوز التفسير التقني الآلي.

2- الوعي بالتاريخ الفعال وانصهار الآفاق

يطرح غادامير مفهوم "الوعي بالتاريخ الفعال"، مؤكداً أننا لا نقرأ التاريخ من فراغ، بل نحن جزء منه. فالمؤول لا يترك تحيزاته المسبقة خلفه، بل يستخدمها كجسر للفهم. وتحدث عملية الفهم الحقيقية عند "انصهار الآفاق (Fusion of Horizons)"; أي حين يلتقي أفق النص (الماضي) مع أفق القارئ (الحاضر) لإنتاج معنى جديد لم يكن موجوداً من قبل بشكل مستقل.

- اللغة كأفق للوجود:

اللغة عند غادامير بالإضافة إلى كونها وسيلة، فهي "الوسط الذي يحدث فيه التفاهم و«إن الوجود الذي يمكن فهمه هو لغة" (غادامير ، 2007، صفحة 412).

يختتم غادامير عمله بالتأكيد على أن "الوجود الذي يمكن فهمه هو لغة"، فاللغة عنده ليست مجرد وسيلة لنقل المعلومات، بل هي الوسط الذي يحدث فيه الفهم وتنكشف فيه الحقيقة، فالحوار هو الجوهر الأصيل للتجربة الإنسانية، ومن خلاله يتشكل وعينا بالعالم وبالأخرين، مما يجعل الهرمنيوطيقا عنده "فلسفة عالمية" لا تقتصر على نصوص معينة.

--اللعب

:استخدم غادامير مفهوم "اللعب" لوصف تجربة الفن، حيث يخرج المتلقي من ذاتيته ليندمج في حركة العمل الفني، مما يثبت أن الفهم ليس فعلاً ذاتياً بحثاً بل هو مشاركة.

--الدائرة الهرمنيوطيقية:

الفهم عملية دائرية تبدأ من الجزء إلى الكل ومن الكل إلى الجزء، وهي عملية لا تنتهي أبداً لأن المعنى يتجدد مع كل قراءة تاريخية جديدة.

- سلطة التقليد:

يرى أن الفرد ليس كائناً معزولاً، بل هو ثمرة لتقاليد ثقافية وتاريخية تمنحه الأدوات الأساسية للفهم.

طرح غادامير مفاهيم ثورية في " الحقيقة والمنهج" ومنها :

- انصهار الآفاق:

الفهم يحدث عندما يلتقي أفق "النص" (الماضي بكل حمولته) مع أفق "المؤول" (الحاضر بكل انشغالاته).

- الوعي التاريخي:

نحن لا نفهم النص رغم تاريخه، بل "من خلال" تاريخه والآثار التي تركها عبر الزمن.

- بول ريكور (1913-2005) علم تأويل الشك والترميم:

لا يكتمل عقد الرواد دون بول ريكور، الذي حاول التوفيق بين علم تأويل الثقة "هرمنيوطيقا الثقة" (التي

تبحث عن المعنى) وعلم تأويل الشك "هرمنيوطيقا الشك" (التي تتبع فلاسفة الشك: نيتشه، ماركس، وفرويد)،

ريكور علمنا أن التأويل هو رحلة طويلة تبدأ من النص، تمر عبر التفسير البنيوي، وتعود لتستقر في "فهم

الذات."

من خلال هؤلاء الرواد، تحول علم التأويل (الهرمنيوطيقا) من مجرد "شرح للنصوص" إلى "فلسفة للحياة"،

لقد انتقلنا من البحث عن "نوايا المؤلف" مع شليرماخر، إلى البحث عن "بنية التجربة" مع ديلتاي، ثم "حقيقة

الوجود" مع هايدجر، وصولاً إلى "حوار الأزمان" مع غادامير.

يُعتبر كتاب "صراع التأويلات: دراسات هيرمينوطيقية" للفيلسوف الفرنسي بول ريكور، أحد أهم المنعطفات

في الفلسفة المعاصرة التي حاولت التوفيق بين "فلسفة الوعي" و"العلوم الإنسانية"، وهو يتمحور حول فكرة مركزية

مفادها أن "المعنى" ليس معطى مباشراً أو بسيطاً، بل هو حصيلة صراع وتعدد في القراءات؛ ومن هنا جاءت تسمية

"صراع التأويلات."

ينطلق ريكور من نقد "الكوجيتو" الديكارتي (أنا أفكر إذن أنا موجود) الذي يرى الوعي شفافاً أمام نفسه،

ليؤكد أن الإنسان لا يفهم ذاته إلا من خلال الوساطة، أي عبر العلامات والرموز والنصوص التي ينتجها.

يؤسس ريكور لمنهجه التأويلي الذي ينقسم إلى اتجاهين متصارعين: -- هيرمينوطيقا المعنى (أو استعادة

المعنى): التي تسعى للكشف عن القصد الكامن خلف الرمز والوثوق في الرسالة النصية.

--هيرمينوطيقا الشك:

وهي التي يمثلها الثلاثي (ماركس، نيتشه، وفرويد)، حيث يتم التعامل مع الوعي كـ "وعي زائف" يحتاج إلى تفكيك لكشف القوى الكامنة خلفه (الاقتصاد، القوة، أو الغريزة).

بول ريكور في هذا العمل يهدف إلى إقامة جسر حواري بين الفينومينولوجيا والبنوية، مؤكداً أن التأويل هو العمل الفكري الذي يتمثل في فك رموز المعنى المختبئ خلف المعنى الظاهر، وفي "قشر" المستويات المتعددة للدلالة التي تنطوي عليها الرموز، فالذات عند "ريكور" لا تدرك نفسها بالاستبطان المباشر، بل عبر "الطريق الطويل" الذي يمر بتحليل النصوص واللغة والأسطورة، إن الصراع الذي يتحدث عنه ليس سلبياً، بل هو صراع خصب يثبت أن الحقيقة ليست أحادية، وأن الوجود الإنساني يتجلى كـ "نص" مفتوح يتطلب قراءة دائمة، وبذلك يحول ريكور علم التأويل من مجرد أداة لتفسير النصوص الدينية أو القانونية إلى أنطولوجيا (فلسفة كينونة) تجعل من فهم الذات وفهم العالم عملية تأويلية مستمرة لا تنتهي، حيث يتصالح فيها التفسير العلمي مع الفهم الفلسفي (بول ، 2004)

- جان غروندان وإضافاته إلى علم التأويل:

يُعد كتاب "فلسفة التأويل"، لجان غروندان ترجمة لحسن عبيبي من أبرز المراجع التي تؤرخ لعلم التأويل، حيث لا يكتفي بعرض النظريات، بل يتتبع الجذور التاريخية واللغوية لمفهوم علم التأويل "الهيرمينوطيقا" منذ العصور القديمة وصولاً إلى العصر الحديث، ويتميز أسلوب غروندان بالوضوح والمنهجية، مما يجعله مدخلاً مثالياً لفهم كيف تحول التأويل من مجرد أداة لتفسير النصوص الدينية والقانونية إلى قضية فلسفية كبرى تتعلق بوجود الإنسان، وفي هذا الكتاب تناول مايلي:

1- الجذور التاريخية للتأويل :

يستعرض غروندان في القسم الأول تطور الهرمينوطيقا قبل القرن العشرين، بدءاً من الاشتقاقات اللغوية المرتبطة بالإله "هيرميس" (رسول الآلهة)، وصولاً إلى العصر الوسيط وعصر النهضة، ويركز على كيف كانت الهرمينوطيقا تُستخدم كقواعد قانونية (Canon) لتفسير الكتاب المقدس والنصوص الكلاسيكية، مبرزاً إسهام فلاسفة مثل "شلايرماخر" الذي نقل التأويل من كونه تقنيات منفصلة إلى علم عام للفهم.

2- التحول نحو الوجودية واللغة:

ينتقل الكتاب لتحليل المنعطف الكبير الذي أحدثه "مارتن هايدغر" و"هانز جورج غادامير"، يوضح "غروندان" كيف تحول الفهم من "نشاط ذهني" نقوم به، إلى "نمط وجود" نعيشه، ويشرح بشكل مبسط كيف أصبح علم التأويل "الهرمينوطيقا" مع غادامير يهدف إلى كشف الحقيقة من خلال الحوار، وانصهار الآفاق، بدلاً من البحث عن يقين تجريبي بارد.

3- علم التأويل "الهرمينوطيقا" في مواجهة التفكيك والنقد :

يناقش "غروندان" التحديات المعاصرة التي واجهت علم التأويل "الهرمينوطيقا"، خاصة السجلات بين "غادامير" وكل من "يورغن هابرماس" و"جاك دريدا"، ويستنتج أن الهرمينوطيقا ليست مجرد تيار فكري عابر، بل

هي اعتراف بمحدودية الإنسان وقدرته الدائمة على إعادة تفسير عالمه، مؤكداً على أن الفهم يظل دائماً عملية مفتوحة وغير مكتملة.

وأهم ما ورد في كتاب: "مقدمة في الهرمنيوطيقا الفلسفية" "لجان غروندان":

-تطور مفهوم الفهم:

رصد التحول من "تفسير النص" إلى "فهم الوجود".

-عالمية الهرمنيوطيقا:

التأكيد على أن التأويل يدخل في كل جوانب الحياة الإنسانية، بالإضافة إلى دخوله في العلوم الإنسانية.

-نقد النزعة المنهجية:

توضيح أن المنهج العلمي وحده لا يكفي لاستيعاب الحقيقة الإنسانية والتاريخية.

- الدائرة التأويلية :

شرح كيف يؤثر الكل في فهم الجزء، والجزء في فهم الكل في عملية مستمرة (جان ، 2003، صفحة 112).

- ريتشارد، بالمر وعرض الجذور التاريخية لعلم التأويل (الهرمنيوطيقة) :

يُعد كتاب "علم التأويل" لريتشارد بالمر، بترجمة الدكتور سعيد توفيق، أحد المراجع التأسيسية باللغة العربية لفهم الفلسفة الهرمنيوطيقية. يستعرض الكتاب الجذور التاريخية والتحولات الكبرى لهذا العلم، حيث يبدأ من نشأته كقواعد لتفسير النصوص الدينية والأدبية، وصولاً إلى كونه منهجاً فلسفياً شاملاً. يسلط بالمر الضوء على "شليرماخر" الذي نقل التأويل من الجزئية إلى الكلية، و"ديلتاي" الذي سعى لتأسيس منهج للعلوم الإنسانية، موضحاً كيف تحول التأويل من مجرد أداة تفسيرية إلى وسيلة لفهم الوجود الإنساني وتجربة الحياة التاريخية. ويركز على الانعطاف الوجودي والأنطولوجي الذي أحدثه كل من "هايدجر" و"غادامير"، يشرح الكتاب كيف نقل هايدجر علم التأويل (الهرمنيوطيقا) من البحث في "المنهج" إلى البحث في "ماهية الوجود"، حيث أصبح الفهم هو الطريقة التي يوجد بها الإنسان في العالم، ثم يأتي غادامير ليتوج هذه المسيرة برؤيته حول "تاريخية الفهم" و"انصهار الآفاق"، مؤكداً أن الحوار مع النص هو عملية حية لا تنتهي. يتميز الكتاب بأسلوبه التحليلي الرصين الذي يربط بين النظرية والتطبيق، مما يجعله دليلاً لا غنى عنه للباحثين في مجالات النقد الأدبي، الفلسفة، والعلوم الاجتماعية (بالمر، 2005).

ثالثاً-- المنظومة الإجرائية لعلم التأويل وأهدافه المعرفية:

إذا كان الرواد قد منحونا "الرؤية"، فإن المنظومة الإجرائية تمنحنا "الأداة"، لا يكتفي علم التأويل (الهرمنيوطيقا) بالتنظير، بل يمتلك جهازاً مفاهيمياً صارماً يحول عملية الفهم من مجرد انطباع ذاتي إلى صيرورة منهجية.

- الدائرة التأويلية:

تعد الدائرة التأويلية الإجراء المركزي والأكثر شهرة، تقوم هذه الآلية على جدلية "الجزء والكل"؛ فنحن لا نستطيع فهم الجملة إلا بالعودة إلى السياق العام للنص (الكل)، وبالمقابل لا يمكننا استيعاب النص الكلي إلا عبر فهم مفرداته وجملة (الأجزاء).

هذه الدائرة ليست "دائرة مفرغة" (لاحاصل فيها)، بل هي "دائرة لولبية" ترتقي بالفهم في كل دورة، المؤول يبدأ بـ "فهم مسبق" ناقص، ثم يغوص في الأجزاء، فيعود إلى الكل بفهم أعمق، وهكذا دواليك حتى يتحقق الوضوح، "يجب أن ينسجم الجزء مع الكل؛ هذا هو المعيار الأول للفهم الصحيح، إن غياب هذا الانسجام يعني إخفاق الفهم (غادامير، 2007، صفحة 411)"

- المسافة الزمنية:

في المناهج التقليدية، كانت المسافة الزمنية بيننا وبين النص القديم تُعد "عائقاً" يجب ردمه. أما في الإجراء التأويلي (خاصة عند غادامير)، فإن المسافة الزمنية هي "شرط إيجابي".
إن مرور الزمن يغسل النص من السياقات الضيقة والآنية، ويسمح بظهور معانٍ جديدة لم تكن متاحة حتى للمؤلف نفسه. نحن لا نفهم النص "رغم" مرور ألف عام، بل نفهمه "لأن" ألف عام قد مرت عليه، مما جعله يختمر في وعي التاريخ.

- مبدأ "تاريخ مفعول النص":

يعني هذا الإجراء أننا عندما نقرأ نصاً (مثل القرآن، أو إلياذة هوميروس، أو مسرحيات شكسبير)، فإننا لا نقرأ النص الخام، بل نقرأ النص مضافاً إليه كل التفسيرات والتأويلات والآثار التي تركها عبر العصور. هذا "المفعول" هو الذي يشكل أفقنا الحالي، ولا يمكننا القفز فوقه.

- لغوية الفهم:

الهرمنيوطيقا تعتبر اللغة هي "المنظومة الإجرائية" الكبرى، الفهم لا يحدث "خارج" اللغة ثم يُصب فيها، بل إن الفهم هو لغة منذ لحظته الأولى،

الإجراء العملي هنا هو "الحوار": يتم التعامل مع النص كـ "شريك في حوار"، المؤول يطرح أسئلة على النص، والنص "يجيب" من خلال بنيته، وهذه الإجابات تولد أسئلة جديدة، إنها عملية "استنطاق" مستمرة لا تتوقف عند معنى نهائي.

- إسقاط الأفق:

يرى التأويل الحديث أن الفهم لا يكتمل إلا بـ "التطبيق"، أي ربط معنى النص بسياق المؤول الحالي، إذا لم يغير النص في ذات المؤول أو واقعه، فإن عملية الفهم تبقى معطلة أو مجرد ترف ذهني.

- أهداف علم التأويل : لماذا نؤول؟

لا يسعى علم التأويل إلى امتلاك الحقيقة المطلقة، بل يهدف إلى تحقيق مقاصد معرفية وإنسانية عليا،
منها:

تحرير النص من ضيق الحرفية: الهدف هو الانتقال من "تفسير الكلمات" إلى "تأويل المعنى"، مما يفتح النص على آفاق كونية.

تجاوز الاغتراب التاريخي: يهدف علم التأويل إلى جعل النصوص القديمة "معاصرة" لنا، من خلال ردم الفجوة بين "هناك وأنداك" وبين "هنا والآن".

- فهم الذات عبر النص:

كما يقول بول ريكور: "نحن لا نؤول النص لنعرف ما فيه فحسب، بل لنعرف "أنفسنا" من خلاله، النص هو مرآة تعيد إلينا ذاتنا وقد اتسعت معانيها، إن التأويل هو المسار الذي يكتشف فيه الوعي أنه محكوم بالتاريخ، ولكنه في الوقت نفسه يمتلك القدرة على الحوار معه (بول ، 2004، صفحة 35).

- تأسيس التسامح المعرفي:

بما أن علم التأويل يؤمن بتعدد القراءات و"انصهار الآفاق"، فهو يهدف ضمناً إلى هدم الأصولية المعرفية، لا أحد يملك "المعنى الوحيد"، والحقيقة هي ثمرة حوار مشترك.

- أنسنة المعرفة:

تحويل العلوم الإنسانية من علوم باردة تحاكي المختبرات، إلى علوم تنبض بتجربة الحياة والوجدان الإنساني.

مثال تطبيقي على المنظومة الإجرائية:

عندما يؤول القاضي نصاً دستورياً وُضع قبل مئة عام، فهو يستخدم "الدائرة التأويلية" لفهم روح المادة في سياق الدستور ككل، ويستخدم "المسافة الزمنية" ليرى كيف تطور مفهوم العدالة، ويقوم بـ "الإسقاط" ليطبق النص على قضية مستجدة (مثل الجرائم الإلكترونية) لم تكن موجودة حين كُتب النص، هذا هو جوهر علم التأويل الإجرائي.

رابعا-- آفاق التأويل وتطبيقاته في الفكر المعاصر :

لم يعد علم التأويل حبيس الرفوف، بل تغلغل في صلب العلوم الإنسانية، مشكلاً ما يُعرف بـ "المنعطف التأويلي".

1- التأويل في الفكر الإسلامي المعاصر:

يبرز هنا اسم نصر حامد أبو زيد كأحد الذين وظفوا علم التأويل (الهرمنيوطيقا) لقراءة التراث، يرى أبو زيد أن النص الديني، على الرغم من مصدره الإلهي، قد "تجسد في اللغة"، وبمجرد دخوله في التاريخ أصبح "نصاً إنسانياً" يخضع لآليات الفهم والتأويل، "النص من حيث هو نص لغوي، يمثل بنية ثقافية وتاريخية، ومن ثم فإن تأويله يستدعي الكشف عن سياقاته التي تشكل فيها. (نصر ، 2005، صفحة 24))"

2- التأويل في النقد الأدبي (جماليات التلقي):

مع "هانز روبرت ياكوبس" و"فولفغانغ إيزر"، انتقل التركيز من "المؤلف" إلى "القارئ"، النص الأدبي عندهم هو "بنية ناقصة" لا تكتمل إلا من خلال عملية القراءة؛ فالقارئ هو الذي يملأ "فراغات" النص بناء على أفقه الخاص.

3- علم تأويل الشك (هرمنيوطيقا "الشك") مقابل علم تأويل الاستعادة (هرمنيوطيقا "الاستعادة"):

علمنا بول ريكور أن التأويل المعاصر يسير في اتجاهين: - تأويل الشك: يمثله (ماركس، نيتشه، فرويد) هؤلاء الذين بحثوا عن المعاني "المستترة" خلف أقنعة الوعي أو الاقتصاد أو الغريزة.

- وتأويل الاستعادة: وهو الذي يحاول ترميم المعنى، وإعادة الثقة في قدرة اللغة على قول الحقيقة والوجود.

مثال تطبيقي من واقعنا: عندما نقرأ "خطابا سياسيا"، فإننا نستخدم علم تأويل الشك (هرمنيوطيقا الشك)

لتفكيك الوعي الزائف، والمصالح الكامنة خلف الكلمات، وفي الوقت ذاته نستخدم علم تأويل الفهم (هرمنيوطيقا

الفهم) لمحاولة إيجاد أرضية مشتركة للحوار، إن علم التأويل (الهرمنيوطيقا) هنا هو الحارس الذي يمنع سقوطنا في

القراءات السطحية أو الدوغمائية الجامدة.

خاتمة:

بعد هذه الرحلة التي بدأت من أسطورة "هيرميس" وانتهت عند "انصهار الآفاق"، يمكننا استخلاص النتائج

الآتية:

- الفهم قدر إنساني: إذا كان التأويل نشاطا فكريا يوظفه متلقي للنصوص لتحقيق التواصل، وهو بذلك

يؤول ليحيا، ويفهم ليكون. ومن هنا يعد التأويل بالنسبة للإنسان نمط وجود، وتحقيق للكينونة .

- سقوط المعنى الواحد: أثبت علم التأويل (الهرمنيوطيقا) أن "الحقيقة" ليست ملكية خاصة، بل هي ثمرة

حوار دائم بين الأنا والآخر، وبين الحاضر والماضي.

- تاريخية الفهم: لا يوجد فهم متعال على التاريخ؛ فكل قراءة هي ابنة عصرها، وهذا لا ينقص من قيمتها،

بل يمنحها حيويتها.

- اللغة بيت الوجود: اللغة ليست وعاء للمعلومات، بل هي الفضاء الذي يتجلى فيه العالم.

إن علم التأويل (الهرمنيوطيقا) اليوم يفتح لنا باب الأمل في تواصل إنساني أفضل؛ تواصل يقوم على

الاعتراف بأن أفقنا ليس هو الأفق الوحيد، وأن كل نص -سواء كان كتابا أو إنسانا أو ثقافة- يحمل في طياته إمكانات

لا نهائية للفهم.

- بالمر , و . (2005). *علم التأويل*. القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة.
- بول , ر . (2004). *صراع التأويلات*. بيروت :: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- جان , غ . (2003). *فلسفة التأويل*. دار الحوار : اللاذقية.
- ديلتاي , ف . (2006). *نشأة الهرمينوطيقا*. القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة.
- غدامير , هـ . ج . (2007). *الحقيقة والمنهج* . دار اوبا.
- فريديريك , ش . (2012). *التأويل والترجمة*. الرباط : دار الأمان.
- مارتن , هـ . (2012). *الكينونة والزمان*. دار الكتاب الجديد : بيروت.
- نصر , ح . ا . (2005). *مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن*. الدار البيضاء: المركز القايي العربي.